هوية الناشئة الجزائريين أثناء الاحتلال الفرنسي بين
الأساليب الفرنسية لطمسها وجهود علماء جمعية العلماء
المسلمين للحفاظ عليها
فرج سعيد ، المجلد 04، العدد 01 ،جانفي 2023 ،
ص ص 444- 462

هوية الناشئة الجزائريين أثناء الاحتلال الفرنسي بين الأساليب الفرنسية لطمسها وجهود علماء جمعية العلماء المسلمين للحفاظ عليها

the identity of the young Algerians during the French occupation is between the French methods of obliterating it and the efforts of the scholars of the association of muslim scholars to preserve it.

فرج سعيد [1]،

[1] جامعة يحي فارس بالمدية، feredj.said@univ-medea.dz

تاريخ الاستلام: 2022/11/01 **تاريخ القبول:** 13 /2022/11 **تاريخ النشر:** 20 /2023/01

ملخص:

عملت فرنسا منذ احتلالها أرض الجزائر سنة 1830م على استخدام جميع الوسائل والأساليب الممكنة لفرض سيطرتها عليها وضمان البقاء فيها لأطول فترة ممكنة، ونظراً لقيمة فئة الناشئة في الحفاظ على هوية الأمة الجزائرية مستقبلا أدركت فرنسا هذا الخطر على وجودها في أرض الجزائر فوجهت أنظارها صوب هذه الفئة من خلال اعتماد أسلوب التجهيل والإقصاء من جهة، والاحتواء والإدماج من جهة أخرى بهدف خلق جيل منسلخ عن هويته وقيمه، ومؤمن بضرورة الاندماج مع الأمة الفرنسية .

لم تكن فرنسا الوحيدة في ميدان معركة الهوية لدى الناشئة الجزائريين وإنما وجدت مقاومة ثقافية قوية في نفس مستوى السياسة الفرنسية على المستوى الثقافي، كان ممن تزعم هذه المقاومة علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على رأسهم الشيخ عبد الحميد ابن باديس والشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذين كثفوا جهودهم لتكوين وتهيئة النشء الجزائري على أسس ركيزة قوامها الأطر العامة لهوية الأمة الجزائرية من أجل حفظ هويته وقيمه .

الكلمات الدالة: النشء، الجزائر، الهوية، الاحتلال الفرنسي، العلماء.

Abstract:

Enter Since its occupation of Algiers in 1830 ،France has used all possible means and methods to assert its control over it, and ensure that it remains there for as long as possible. in view of the value of the identity and future of nations, France réalized this danger to its existance in the territory of Algeria, and turned to this category by adopting the method of ignorance, and exclusion and containment integration with the aim of forming a generation , that is far from its identity, and believers in integration into the French nation.

This conflict , there has been strong cultural résistance at the same level as Frence's policy, led by the association of Algerian muslim scholars, most notaby sheikh Abdelhamid ben Badis, and sheikh Brahimi , Who have tried to train,and prepare Algerian youth, on the basis of the identity of the Algerain nation, in order to preserve their identity and values.

Keywords: : young people; Algeria; identity; Franch occupation; scientists.

مقدمة:

عملت سلطات المحتل الفرنسي منذ أن وطئت أقدامها أرض الجزائر سنة 1830م على استعمال كل الوسائل والأساليب الممكنة لفرض سيطرتها التامة على الأرض والإنسان بهدف القضاء على كل ما يشكل تهديداً أو خطراً على وجودها، وبعد عديد الحملات العسكرية التي استطاعت على إثرها القضاء على المقاومات الشعبية ظنت أنها استطاعت إخضاع الجيل الأول الذي عاصر الحملة الفرنسية، فوجهت أنظارها إلى الناشئة أبناء الأهالي الجزائريين الذين يشكلون الجيل الثاني الذي سيكون في مواجهة مباشرة معهم مستقبلاً، إما أن يثور ضدهم وإما أن يرضى بوجودهم، لذلك انتهجت سياسة استشرافية مُوجهة لهؤلاء

الناشئة، عملت فيها على انتهاج مجموعة من الأساليب لطمس هويتهم بهدف عزلهم عن هويتهم الأصيلة وطمسهم في البوتقة الفرنسية، ولتحقيق هذا الهدف اتبعت سياسة متباينة في الممارسة ومتوافقة في تحقيق الهدف وهي اتباع أسلوب الإقصاء والتجهيل من جهة، والاحتواء والإدماج من جهة أخرى .

لم تتفرد سلطات المحتل الفرنسي بالتخطيط والاستشراف لمصير هوية فئة الناشئة الجزائريين وإنما كانت إلى جانبها وفي خط موازي لها ومتصارع معها ولو بطريقة غير مباشرة علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلى رأسهم عبد الحميد ابن باديس والبشير الإبراهيمي الذين أدركوا هذا المخطط الذي يستهدف هوية الناشئة والخطر الذي سيشكله هذا الأمر على مستقبل الجزائر وهوية الأمة الجزائرية، لذلك قاموا بالعديد من الجهود وعلى رأسها الاهتمام بالتعليم الذي ارتكز على مقومات هوية الأمة الجزائرية والذي كان يهدف إلى تعزيز الهوية في نفوس هؤلاء الناشئة رداً على سياسة المكر الفرنسية التي استهدفت هويتهم.

من هذا المنطلق جاءت دراستنا للبحث في الأساليب التي انتهجتها فرنسا لطمس هوية الناشئة الجزائريين وكيف رد علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عليها وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد ابن باديس والشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، وذلك من خلال تقسيمنا بحثنا إلى العناصر التالية:

1- قيمة وأهمية النشء أو الأجيال الصاعدة في المجتمعات

2- الأساليب الفرنسية لطمس هوية الناشئة الجزائريين أثناء فترة الاحتلال

3- جهود علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في لحفاظ على هوية الناشئة

1. أهمية وقيمة النشء أو الأجيال الصاعدة في المجتمعات

تعتبر فئة الناشئة من الفئات المهمة جداً في المجتمعات ذلك أن هذه الفئة تشكل مورداً مهما لصناعة النخب وتكوينها للسير بقاطرة الأمة نحو الرقي والتقدم من جهة ومن جهة أخرى هي صمام الأمان الذي يحافظ على هوية الأمم واستمرارها بعد انتقال الدور الحضاري من الجيل الذي يسبقها إليها، لذلك كانت الأمم التي تسعى للحفاظ على ذاتها

وضمان استمرار وجودها منذ القدم تعمل على الاهتمام بهذه الفئة وتكوينها تكويناً يليق بالبيئة التي نشأت فيها وتعيش فيها، من بين هذه الأمم الأمة الإسلامية، فقد وُجدت العديد من الشواهد التي تثبت الاهتمام الكبير الذي خصصه الأمة الإسلامية لهذه الفئة من خلال تبيين طرق التعامل معها لاستغلالها استغلالاً حسناً يعود بالنفع عليها وعلى مجتمعها وأمتها .

ولما كانت الأمم والدول تتجدد وتستمر بتعاقب أجيالها ومدى قدرتهم على الحفاظ على مقومات هوية تلك الأمة ودفاعهم عنها، كان لزاماً تهيئة وتكوين الناشئة لتحمل المسؤولية الملقاة على عاتقها، لأن الدول أو الحضارات كما ذكر عبد الرحمان ابن خلدون لا تنحصر على جيل واحد وإنما تتعاقب عليها الأجيال، حيث حددها ابن خلدون في ثلاث أجيال بقوله: "وأما أعمار الدول أيضا وإن كانت تختلف بحسب القِرَانَاتِ إلا أن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال..."[1] الشاهد من هذا القول من خلال استشهادنا به ليس ذكر عمر الدولة ولكن التأكيد على أن وجود الدول واستمرارها مرتبط بتعاقب الأجيال عليها وأنها لا تنحصر في جيل واحد، لذلك لابد من تهيئة الجيل الصاعد أو النشء وتكوينه بطريقة جيدة لأجل أن يكون قادراً على تحمل مسؤولية بقاء الأمة أو الدولة والحفاظ على هويتها أمام كل التحديات الداخلية والخارجية .

هذا الأمر لم يغفل عنه العلماء الجزائريين في الفترة التي سبقت الاحتلال الفرنسي أرض الجزائر سنة 1830م، حيث أدركوا أهمية تعليم الناشئة وترسيخ كل مقومات هوية الأمة الجزائرية في نفوسهم بما في ذلك تعليمهم اللغة العربية منذ المراحل التعليمية الأولى ليغرسوا فيهم روح الانتماء للحضارة العربية الإسلامية، ويرسخوا في نفوسهم حب لغة القرآن الكريم ولغة الدين الإسلامي، كما كانوا يحرصون على تعليمهم مبادئ الإسلام الأولى ويدربونهم على ممارسة مختلف الشعائر الإسلامية من خلال اصطحابهم للمساجد وفي مختلف المناسبات الدينية من أجل تعزيز روح الانتماء للدين الإسلامي منذ الصغر لأنه معروف أن التنشئة الأولى للطفل لها دور كبير في رسم مساره الذي يسير عليه في بقية عمره، كذلك كانوا

يحرصون على تعليمهم حب وطنهم الوطن الذي يمارسون فيه شعائرهم الإسلامية بكل حرية في أمن وأمان، ويلهمون نفوسهم فخراً واعتزازاً بسرد تاريخهم العريق والأصيل لتعزيز روح الانتماء لماضيهم الحضاري وزرع الثقة في نفوسهم بعد أن يعرفوا أصولهم وجذورهم التاريخية الضاربة في القدم ونتيجة هذا الحرص في تعليم الناشة والاهتمام بها بلغت نسبة الأمية درجة قليلة جداً في أواخر العهد العثماني وذلك وباعتراف الفرنسيين أنفسهم، وهذا ماساهم في الحفاظ على هويتهم .

2. الأساليب الفرنسية لطمس هوية الناشئة الجزائريين أثناء فترة الاحتلال

لقد ادعت فرنسا غداة احتلالها أرض الجزائر سنة 1830م أنها ما جاءت إلا لتخلص الجزائريين من بطش الحكام الأتراك بزعمها، وأنها ما جاءت إلا لنشر رسالة الحضارة والتمدن بين الجزائريين، لكن الأكذوبة الفرنسية لم تدم طويلا، حيث تجلت للعيان بعد أن وضعت قدمها على أرض الجزائر وتأكدت من عدم قدرة الجزائريين إخراجها من أرضهم بسبب عدم تكافئ موازين القوى، فتوسعت طموحاتها وجشعها في أرض الجزائر، و عملت على التخطيط للبقاء أطول فترة ممكنة بعدما أغرتها الموارد والخيرات التي حبى الله بها هذه الأرض.

ونظراً لطبيعة الاحتلال الذي مارسه المحتل الفرنسي في أرض الجزائر والقائم على المكر وفرض سياسة السيطرة الكلية والشاملة مادياً ومعنوياً على الأمة الجزائرية لأطول فترة ممكنة أدرك الخطر الذي يمكن أن يشكله الجيل الجزائري الصاعد أو النشء على وجوده في الجزائر لذلك انتهج سياسة محددة ومدروسة يستهدف من خلالها ضرب هوية الجيل الصاعد أو النشء، عن طريق استخدام كل الوسائل والأساليب التي يمكن من خلالها قتل روح الانتماء للوطن والتمسك بالهوية في نفوس هؤلاء الناشئة كي يضمن عدم قيام أي رد فعل ثوري في نفوس هؤلاء ضد وجوده في أرض الجزائر، ويمكن حصرها عامة في أسلوبين:

1.2 سياسة التجهيل والإقصاء

كما ذكرنا سابقاً كانت نسبة الأمية في الجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي قليلة جداً وتكاد تنعدم في وسط المجتمع الجزائري بفضل انتشار مختلف مراكز التعليم رغم بساطتها مثل الكتاتيب، المدارس، المساجد، الزوايا وما كان لهذه المراكز التعليمية من دور كبير في تعزيز مقومات الهوية في نفوس هؤلاء الناشئة، ولأجل القضاء على مقومات الهوية في نفوسهم عملت سلطات المحتل الفرنسي على محاربة هذه المراكز وانتهاج كل الأساليب الممكنة للقضاء عليها، من خلال تجفيف مصادر تمويل تلك المراكز عن طريق الاستيلاء على الأوقاف التي كانت هي الممول الرئيسي لمراكز التعليم المختلفة.

هذا ما أكده أبو القاسم سعد الله حيث يذكر أن سلطات المحتل الفرنسي بعد أن وطئت أقدامها أرض الجزائر خانت بنود معاهدة الاستسلام ومنها تلك المتعلقة بوعدها عدم المساس بأملاك الأوقاف، حيث استولت على الأوقاف بنوعيها العامة والخاصة، بحجة أن هذه الأملاك هي أملاك البايلك أو الدولة الجزائرية أو تحت اسم أملاك الأتراك، واستخدمت في سبيل الاستيلاء عليها مجموعة من القوانين والتشريعات التي تبيح لها حق الاستيلاء عليها، وانتهت في الأخير بإلحاق مداخيل الأوقاف الإسلامية بميزانية الدولة الفرنسية، وبذلك حرمت الجزائريين من المورد المالي الذي كان يرعى التعليم[2]، ووُجهت مداخيل وأموال الأوقاف بدل ذلك لتمويل المراكز التي تهدف لنشر ثقافتها، وتعليم الفئة التي كانت هي من تختارها وتسمح لها بالتعلم وعلى رأسها الأطفال الفرنسيين والأوروبيين الموجودين بالجزائر[3].

تنوعت وتعددت أساليب المحتل الفرنسي في استهداف هذه المراكز التعليمية التي كانت تعلم الناشئة وتبث فيها روح الاعتزاز بهويتهم من بين هذه المراكز التعليمية المساجد، حيث عملت على هدم بعض المساجد بحجة القيام بمشاريع التوسعة وفتح الطرقات، وبعض المساجد الأخرى حُولت إلى كنائس أو تم منحها إلى المصالح العامة سواء عسكرية أو مدنية بهدف استغلالها لمصالحها الخاصة، وحدث نفس الأمر مع الزوايا [4] التي كانت أيضا من المراكز التعليمية المهمة وخاصة في مناطق الجنوب الجزائري، كذلك عملوا على التضييق على

المعلمين والعلماء مما دفع بعضهم إلى الهجرة والبعض الآخر تعرض للنفي مثل ابن العنابي وبذلك حُرم طلاب العلم الناشئة من الاستفادة من الرصيد العلمي لهؤلاء العلماء .

كما عملت سلطات المحتل الفرنسي على نهب وسرقة مختلف أملاك الجزائريين من أراضي ومواشي وغيرها بهدف التضييق على معيشة الجزائريين وهذا ما كان له أثر كبير في عجز الأهالي عن دفع تكاليف تعليم أولادهم وحتى توفير القوت لعائلتهم، وبدل أن يتوجه الأطفال الجزائريين إلى المدارس للتعلم في أيام الصغر توجه الكثير منهم للعمل من أجل ضمان قوتهم وقوت عائلاتهم وخاصة تلك العائلات التي فقدت رب الأسرة أثناء المقاومات الشعبية أو الذين تعرضوا للسجن من قبل سلطات المحتل الفرنسي، ونتيجة محدودية المستوى التعليمي الذي نشأ عليه هؤلاء الأطفال كان من الطبيعي أن يسهل على المحتل الفرنسي الاحتيال عليهم واستهداف مقومات هويتهم وفي هذا الموضع يكمن الخطر الكبير الذي تعرضت له هوية هؤلاء الأطفال ليس في التحديات المعيشية في شقها الاقتصادي على رغم من قساوتها ولكن في سياسة التجهيل الممنهجة التي مُورست ضدهم من خلال هذه الممارسة لأن التعليم هو الطريق الذي ينير دروب الأجيال ويحفظ هويتها أمام كل التحديات .

2.2 سياسة الاحتواء والإدماج

في مقابل سياسة التجهيل والإقصاء التي مارسها المحتل الفرنسي اتجاه الأطفال الجزائريين انتهج سياسة أخرى مغايرة للسياسة الأولى إلى أن الهدف كان واحداً وهو طمس كل ما يرمز لهوية الأمة الجزائرية في نفوس هؤلاء الناشئة وذلك من خلال استقطاب هذه الفئة واحتوائها خدمة لمشروعه الاحتلالي الاستيطاني، حيث فتح المحتل الفرنسي أبواب المدارس الفرنسية أمام بعض الأطفال الجزائريين وعلى رأسهم أبناء أولئك الذي كانوا يعملون في مختلف الإدارات الفرنسية ومتعاونين مع المحتل الفرنسي، والسبب في السماح لهؤلاء بالتعلم في المدارس الفرنسية هي أن الفرنسيين كانوا يرون أن هؤلاء الأطفال لن يشكلوا خطر على وجودهم بعد تعلمهم لأنهم بطبيعة الحال سيسيرون في نفس مسار أبائهم الذين فضلوا التعاون مع فرنسا وخدمة مصالحها، الأمر الآخر أن سلطات المحتل الفرنسي كانت تدرك أن هؤلاء

الأطفال لا يملكون أي رصيد معرفي يخالف توجهات سلطات المحتل الفرنسي ومن السهل عليهم غرس مختلف القيم الفرنسية في نفوسهم وعلى رأسها الرضا بالوجود الفرنسي وبقبول الاندماج مع الأمة الفرنسية، وحتى ذلك الاندماج كانت فرنسا تنظر فيه بعين الدونية وبالاحتقار للعنصر الأهلي الجزائري .

وحرصا على استقطاب فئة الناشئة الجزائريين إلى صف المحتل الفرنسي عن طريق استخدام وسيلة التعليم، أنشأت سلطات المحتل الفرنسي مدارس ابتدائية حوالي ستة مدارس بعد 1850م أعدت لها برامج تعليمية مخصصة ومطابقة تماماً لنظام التعليم الفرنسي باستثناء مادة حفظ القرآن والعربية الدارجة التي كانت تكلف بها متعاون جزائري مسلم[5]، وكان الهدف من وراء توجيه هذا النمط من التعليم هو طمس معالم هوية الأمة الجزائرية في نفوس هؤلاء الناشئة باعتبار أن اللغة التي كانت تستخدم في التعليم هي اللغة الفرنسية وهو ما يعني إقصاء اللغة العربية التي ترمز للانتماء للحضارة والثقافة العربية الإسلامية باستثناء مادة حفظ القرآن والعربية الدارجة التي كانت تسمح لهؤلاء الأطفال بتعلمها وحتى هذا السماح بتعلم العربية الدارجة كان الهدف الحقيقي منه محاربة اللغة العربية وتشويهها في نفوس هؤلاء الأطفال المتعلمين في مقابل تعزيز اللغة والثقافة الفرنسية في نفوسهم، وهذا ما يسهل من عملية دمج هؤلاء الأطفال في الثقافة الفرنسية والتوجهات الفرنسية باعتبار أن اللغة هي البوابة التي من خلال يطلع الآخرون على ثقافة وتوجهات الغير، وباعتبار أن المستوى المعرفي للناشئة الجزائريين كان محدوداً أكيد أن هؤلاء سيقعون في فئة الاستيلاب الفكري، وهذا ما حصل للعديد من الجزائريين حيث تأثر بعضهم تأثيراً سلبياً بحب هذه اللغة وأصبحوا من أكبر المدافعين عنها حتى أكثر من أصحابها، وتشجيعاً على نشرها بصورة أكبر بين الجزائريين أصبح الوظائف وخاصة في الإدارة الفرنسية محصورة على من يتقنون اللغة الفرنسية، وهذا ما حتم على الناشئة الجزائريين الذين يردون الحصول على وظائف ضرورة تعلم اللغة الفرنسية وإتقانها .

لقد كانت فرنسا تخطط من وراء احتواء هؤلاء الناشئة باستخدام عامل التعليم ربط عقول وأفكار هؤلاء بالثقافة والتاريخ الفرنسي بدل انتمائهم للثقافة الإسلامية، لدرجة أن بعضهم تنكر لوجود الأمة الجزائرية أصلا ومنهم فرحات عباس الذي كتب مقال فرنسي سنة 1936م بعنوان "فرنسا هي أنا" جاء فيه: "لو كنت قد اكتشفت أمة جزائرية لكنت وطنيا ولم أخجل من جريمتي، فلن أموت من أجل الوطن الجزائري لأن هذا الوطن غير موجود، فلم أجده لقد بحثت في التاريخ، وسألت الأحياء والأموات، وزرت المقابر دون جدوى"[6] .

إن المتأمل لهذا القول الذي صدر من فرحات عباس يدرك فضاعة المحتل الفرنسي وأساليبه الماكرة التي استهدفت هوية الأطفال الجزائريين، لأن فرحات عباس كان في يوم من الأيام أحد هؤلاء الأطفال الذي حرصت فرنسا على طمس كل معالم هوية الأمة الجزائرية في نفوسهم تاريخاً وثقافةً ووجوداً أثناء مزاولة تعليمهم في المدارس الفرنسية وما هذا القول الذي صرح به إلا نتاج السياسة التعليمية الماكرة التي انتهجتها فرنسا ضد هؤلاء، حتى المتأمل الواعي للعبارات التي أوردها في قوله لا تدل على احتقاره للأمة الجزائرية أو أنه يشك في وجودها أو يرفض الاعتراف بها مع علمه بوجودها، بل تدل عباراته مثل "لو كنت قد اكتشفت" و عبارة "لم أخجل من جريمتي" أن السياسة الفرنسية التعليمية نجحت في القضاء على مقومات هوية الأمة الجزائرية في فكر فرحات عباس وعلى رأسها تاريخ الأمة الجزائرية في نفسه، لدرجة أنه غابت في فكره حقيقة وجود الأمة الجزائرية، وأصبح ينظر للأمة الجزائرية من نفس زاوية المحتل الفرنسي ووفق ايديولوجيته التي أراد للناشئة أن يروا من خلالها ووفق أطرها، وهنا ندرك يقينا الأثر الكبير الذي يخلفه طبيعة التعليم في نفوس الناشئة لذلك وجب الحرص على تكوينهم تكويناً سليماً يحفظ هويتهم ويجعلهم قادرين على الحفاظ عليها وقادرين تحقيق نهضتهم المنشودة من خلالها .

لم يبقى فرحات عباس يسير على نفس هذا التوجه الذي يتنكر فيه للأمة الجزائرية والذي يدعو من خلاله للانصهار في البوتقة الفرنسية وإنما غَيَّرَ وجهة نظره بعدما اكتشف حقيقة المحتل الفرنسي والنظرة الدونية التي يتعامل بها مع الجزائريين أثناء تجنده في صفوف

الجيش الفرنسي ضمن وحدة طبية كصيدلي برتبة مساعد خلال الحرب العالمية الثانية في الفترة الممتدة من 1939إلى 1940م ،ثم غير من توجهه أكثر بعد أن أعلن انضمامه للثورة التحريرية ولجبهة التحرير الوطني خلال ندوة صحفية بالقاهرة [7]، وإن تمكن فرحات عباس من تغيير وجهة نظره فإن فئة ولو أنها كانت قليلة جداً بقيت تؤمن بضرورة الانصهار في الأمة الفرنسة نتيجة وقوعهم تحت تأثير السياسة التعليمية الفرنسية التي انتهجتها نحوهم في أيام الصغر أين قامت بغسل عقولهم وطمس هويتهم، وما ذكرنا لفرحات عباس إلى للاستشهاد بنموذج من هؤلاء الأطفال الجزائريين الذي مارست سلطات المحتل الفرنسي اتجاههم هذه السياسية التعليمية على سبيل المثل لا الحصر .

كذلك من الأساليب التي ركز عليها المحتل الفرنسي لطمس هوية الناشئة الجزائريين تنصير هؤلاء الأطفال مستغلين في ذلك سنهم المبكر لأنه لا يخفى على عاقل أن الاحتلال الفرنسي كان من بين الأسباب الكبرى في وجوده بالجزائر الحقد الديني الدفين على المسلمين في شمال إفريقيا عامة والجزائر خاصة، وهذا الحقد دل عليه القرآن الكريم حيث يقول الله عز وجل {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ} [8]، حيث كانت الدول الأوروبية الراعية للمسيحية تسعى منذ القدم لنشر المسيحية في منطقة شمال إفريقيا وباحتلال فرنسا للجزائر وجدت الفرصة سانحة لتحقيق مبتغاها .

كانت سلطات المحتل الفرنسي ترى أنها بتنصير هؤلاء الأطفال يسهل ربطهم بفرنسا ويسهل قبولهم بالوجود الفرنسي في أرضهم، كما يساهم ذلك في عزلهم عن دينهم الإسلامي الذي يحث على الجهاد ورفض الاحتلال الفرنسي على أرضهم الإسلامية، وقد أوردت المصادر التاريخية في هذا الباب العديد من الأمثلة منها ما كان يقوم به الكاردينال لافيجري مع الأطفال الجزائريين، حيث استهدف فئة الأطفال الجزائريين وذلك من خلال تلقينهم تعاليم الإنجيل، وإقامة مراكز رعاية الأيتام وتربيتهم وتنشئتهم لأجل تنصيرهم[9]، حيث تم إنشاء

مؤسستين منفصلتين لهذا الغرض تحت إشراف رجال الدين والجمعيات الخيرية الفرنسية الموجودة بالجزائر، الأولى خُصصت للأطفال الصغار فوق ستة سنوات، يتم فيها تدريب هؤلاء الأطفال الأيتام على الزراعة والفنون والحرف، وتقع هذه المؤسسة بضواحي العاصمة وقد بلغ عدد الأطفال بها أكثر من 500طفل، أما المؤسسة الثانية فقد عُهد الإشراف عليها للراهبات الكاثوليك وخُصصت لتدريب الصغار على العمل الميداني ورعاية الأسرة الريفية، وقد كان الهدف الرئيسي من هذه الممارسات طمس معالم هوية الأمة الجزائرية في نفوس هؤلاء الناشئة ودمجهم في بوتقة الأمة الفرنسية، وهو ما أكده الكاردينال لافيجري، حيث ذكر بأن رعاية هذه الفئة والاهتمام بها سيساهم في تسهيل مهمة دمج الجزائر في الأمة الفرنسية[10]، ذلك أن مستقبل الجزائر والوجود الفرنسي بها مرهون بهؤلاء الناشئة إما أن يرضوا بالعيش في ظلال الأمة الفرنسية، وإما أن يثوروا في وجهها لذلك عملية تنصيرهم ستساهم في رضاهم بالاندماج مع فرنسا .

كما عملت سلطات المحتل الفرنسي على تعليم الأطفال الجزائريين الذين يزاولون تعليمهم في المدارس الفرنسية أن الدولة الجزائرية والأمة الجزائرية لم تكن موجودة من قبل في يوم من الأيام وإنما هي أرض تعرضت للعديد من التدخلات الأجنبية كان آخرها الاحتلال التركي حسبهم، وأن فرنسا ما جاءت إلا لتطرد هذا المحتل وتنشر رسالة الحضارة في الجزائر لذلك من الطبيعي أن يكون الإطار الطبيعي الذي يجب أن تكون عليه الأرض الجزائرية والأمة الجزائرية تابعةً لفرنسا وجزء لا يتجزء منها، مستغلةً في ذلك صغر سن هؤلاء الأطفال وقلة رصيدهم المعرفي بتاريخ الجزائر الضارب في القدم، وقد نجحت في تحقيق مبتغاها مع بعض الناشئة الذين أصبحوا مع مرور الزمن من دعاة الإدماج والدعوة للعيش تحت مظلة الأم الفرنسية التي ترعى مصالح الجزائر بزعمهم .

3. جهود علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على هوية الناشئة

في خط موازي لأساليب المكر الفرنسية كان العلماء والرجال الجزائريين الوطنيين يعملون بشتى الطرق والوسائل للوقوف في وجه هذه السياسة التي استهدفت ضرب مقومات الهوية في أذهان الناشئة الجزائريين كل حسب نظرته وطريقته، كان من بين هؤلاء علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على رأسهم الشيخ عبد الحميد ابن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي، وإنما جاء اختيارنا لنموذج العلماء الذين تبنوا الخط الإصلاحي أو التوجه الإصلاحي لأن هؤلاء العلماء اختاروا سبيل المقاومة الثقافية وفضلوا عدم الدخول في صدام مباشر مع المحتل الفرنسي بهدف توفير الأرضية الجيدة لاستمرار نضالهم الثقافي عن طريق الحفاظ على هوية الأمة الجزائرية وخاصة في نفوس هؤلاء الناشئة، وقد يستصغر البعض من أسلوب المقاومة الثقافية للاحتلال الفرنسي لكن الإنسان العاقل الكيس يدرك يقيناً أهمية وقيمة هذا النوع من المقاومة التي كانت جنباً إلى جنب مع المقاومة المسلحة، حيث كانت الأولى تهدف لتحرير العقل والفكر، والثانية تهدف لتحرير الإنسان والأرض وباتحادهما معاً كان يُرجى تحقيق الاستقلال الكامل .

لقد تفطن الشيخ عبد الحميد ابن باديس والشيخ محمد البشير الإبراهيمي وغيرهم من العلماء المصلحين لهذا المشروع الفرنسي الاستشرافي الماكر اتجاه الناشئة الجزائريين لذلك أدركوا أهمية تعبئة النشء بمبادئ الانتماء للوطن الجزائري من خلال تعليمه تاريخ بلاده العريق والأصيل، وتعليمه الدين الإسلامي الذي يعبر عن هويته الحضارية وانتمائه للأمة الإسلامية جمعاء وهو ما أكده عبد الحميد ابن باديس في القصيدة التي ألقاها بمناسبة حفلة جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة يقول في أحد أبياتها:

نشء على الإسلام أس س بنائه السامي انتصب
نشء بحب محمد غ ذاه أشياخ نجب [11]

وهذين البيتين يدلان على أن الشيخ عبد الحميد ابن باديس وغيره من شيوخ الجمعية عملوا على غرس أسس الإسلام وحب الرسول صلى الله عليه وسلم في نفوس هؤلاء الناشئة،

كما عملوا على تعليمه اللغة العربية التي هي لغة الدين الإسلامي التي يفهم بها الإسلام، وليست خاصة بجنس معين أو عرق معين كما يحاول البعض بثه من أجل الحط من قيمتها وأهميتها، لذلك أول ما بدأ به في مشروعه الذي يهدف لتحرير الجزائر تحضير الجيل الصاعد بتهيئته وتكوينه تكويناً ثقافياً وروحياً قائماً على أسس ثابتة، وهذا لا يتأتى إلا برفع الأمية عن الناشئة وحمايتهم منها وهو أحد أهم الركائز والمهام التي اعتمدها علماء الجمعية حيث يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في هذا الصدد "...يجب عليها [جمعية العلماء] أن تحمي الصغار المعرضين لغوائلها وفتكها"[12].

ولما كان التعليم هو الميدان الخصب الذي ارتكزت عليه السياسة الفرنسية في طمس هوية هؤلاء الناشئة وإدراكاً لأهمية هذا الميدان في التأثير على الناشئة كَثَّفَ عبد الحميد ابن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي وغيرهم من العلماء جهودهم في هذا الميدان من أجل الحفاظ على هوية هؤلاء الناشئة وذلك بإنشاء وفتح المدارس التي تعمل على تعليم اللغة العربية والحفاظ عليها في أذهان الناشئة، وتعليمهم مبادئ الدين الإسلامي في المدارس وأثناء الخُطب والحلقات التي كانت تقام في المساجد، وتحذيرهم من ترك دينهم ومن السياسية الدينية الفرنسية التي تهدف لتنصيرهم، مستغلين في ذلك صغر سن الناشئة وقابليتهم لتلقي التكوين التعليمي الصحيح الذي عليه يتوقف تكوينهم ومسارهم المستقبلي، وفي هذا الصدد نبه عبد الرحمان ابن خلدون حول أهمية استثمار هذه المرحلة العمرية لتعليم النشء وتكوينهم تكويناً صحيحاً حيث يقول: "التعليم في الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات وعلى حساب الأساس وأساليبه يكون حال ما يبنى عليه"[13] .

كما بذلوا جهود كبيرة في تعليم هؤلاء الناشئة تاريخهم الأصيل وتاريخ أمتهم المستقلة تماماً عن الأمة الفرنسية وبأحقيتهم في أن يعيشوا في وطنهم مستقلين تماماً عن الأمة الفرنسية، وأنهم قادرين على تسير بلادهم بعيداً عن تدخل سلطات المحتل الفرنسي الذي كان يروج لفكرة عجزهم عن تسيير أمورهم بمفردهم، وعملوا على غرس كل ما يرمز لحب الانتماء للأرض الجزائرية في نفوس هؤلاء الناشئة كي يعيشوا رغم كل الظروف حاملين لمبدأ قضية

وطنهم المغتصب الذي يجب أن يستقل ويعود إلى أحضان الإسلام وإلى إطاره الحضاري الصحيح .

لقد ساهمت جهود علماء جمعية العلماء المسلمين من خلال المدارس الحرة التي أنشؤوها ونوعية التعليم الذي كانت تقدمه في استقطاب عدد كبير من أبناء الجزائريين بعدما وجد أوليائهم في هذا التعليم ما يحفظ هويتهم من خطر الطمس الممارس ضدهم من طرف فرنسا، حيث صار هؤلاء الأطفال يُزاوجون في تعليمهم بين المدارس الفرنسية والمدارس التي افتتحها علماء جمعية العلماء لدرجة أن استغرب المربين الفرنسيون من هذا الإقبال وهذه القدرة على المزاوجة بينهما، حيث كان البعض يدرس 14ساعة في اليوم يزاولون الدراسة في المدارس الفرنسية أثناء النهار، والمدارس العربية عند الفجر والمساء، من أمثلة ذلك ما كان سائداً في بني ميزاب وغيرها[14]، ومثلما كان لسلطات المحتل الفرنسي نظرة استشرافية لمستقبل هؤلاء الناشئة من خلال محاولة خلق جيل يؤمن بالثقافة الفرنسية ويدعو للانصهار في البوتقة الفرنسية، كان لعلماء جمعية العلماء المسلمين على رأسهم الشيخ عبد الحميد ابن باديس والشيخ محمد البشير الإبراهيمي نظرة استشرافية كذلك للحاضر والمستقبل الذي يجب أن يكون عليه النشء الجزائري ويظهر ذلك في البيت الذي خاطب فيه الشيخ عبد الحميد ابن باديس النشء من خلال القصيدة التي ألقاها بمناسبة حفلة جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة بقوله:

يانشء يا ذخر الجزا ئر في الشدائد والكرب

وبقوله في بيت آخر من نفس القصيدة

يانشء انت رجاؤنا وبك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاح ها وخذ الخطوب ولا تهب [15]

إن هذين البيتين يدلان على أن الشيخ عبد الحميد ابن باديس ورفاقه من علماء الجمعية كانوا يعملون على تهيئة وتحضير النشء الجزائريين لما ينتظره من تحديات وذلك من

خلال بث وتعزيز كل مقومات هوية الأمة الجزائرية في نفوسهم وحين يتشبع هذا النشء بهذه المبادئ سينطلق مدفوعاً بالتكوين الذي تلقاه للقيام بثورته المسلحة التي يسترجع بها استقلاله المغتصب بخطى ثابتة بعيدة عن أي انحراف يمكن أن يتعرض له في طريقه أثناء القيام بثورته، والبيت ثاني أكبر دليل على أن الشيخ عبد الحميد ابن باديس كان يحمل فكر ثوري ضد المحتل الفرنسي ويؤمن بضرورة الثورة ضده حينما يكتمل بناء الجيل من الناحية الروحية والثقافية، لأنه خاطب وطالب النشء بضرورة استخدام السلاح المناسب لمواجهة دروب الحياة، وبطبيعة الحال كانت حياة الجزائريين تحت احتلال عسكري فرنسي لذلك لابد أن يكون السلاح متوافق مع طبيعة ظرف الحياة التي يعيشها الجزائريين وهو ما يعني الثورة المسلحة ضد المحتل الفرنسي حينما تتوفر الظروف الملائمة لذلك، والكيس الفطن يدرك أن هذه الأبيات هي خطاب من عالم حكيم مرر من خلالها رسائل مشفرة إلى الجزائريين عامة والنشء خاصة في تلك الفترة بطريقة غير مباشرة تجنباً للصدام المباشر مع المحتل الفرنسي .

وفعلا كانت نظرة عبد الحميد ابن باديس الاستشرافية وغيره من العلماء في محلها فقد نجحوا في تكوين جيل مؤمن ومتمسك بكل مقومات هويته وانتمائه الحضاري، احتضن الثورة بمجرد انطلاقتها وكان في الصفوف الأولى أثناء الثورة في أرض المعركة رافعاً شعار "الله أكبر" معلناً الجهاد ضد العدو الفرنسي، كيف لا يعلن الجهاد ويرفع السلاح بعد أن دعاه الوطنيين المخلصين الذين فجروا الثورة التحريرية ومنبته من القيم الأصيلة التي غرستها فيها المدرسة الإصلاحية التي جعلت من مقومات هوية الأمة الجزائرية شعاراً لها والمتمثل في "الإسلام ديننا، العربية لغتنا، والجزائر وطننا".

4. الخاتمة

تعتبر فئة الناشئة أو النشء من الفئات المهمة في المجتمع ذلك أن مصير تلك المجتمعات يتوقف مستقبلاً عليها بعد أن تتسلم مشعل قيادة قاطرة الأمة، فإن كان النشء جيل صالح متشبع بمبادئ هويته صان الأمة وحفظها من كل الأخطار التي تواجهها، وإن كان جيل فاشل مستلب الذات سار بالأمة إلى مواطن الهلاك، هذه الأهمية الكبيرة للنشء أدركتها

سلطات المحتل الفرنسي وأدركت الخطر الكبير الذي تشكلها عليها لذلك انتهجت كل الأساليب الممكنة للحيلولة بينه وبين قيمه ومرتكزات هويته كي يسهل عليها غرس فكرة الاندماج مع الأمة الفرنسية والرضا بالوجود الفرنسي، وتبنت في سبيل تحقيق هدفها كل السبل الممكنة تنوعت بين الإقصاء والتجهيل من جهة والاحتواء والإدماج من جهة أخرى .

ولما كانت الأمة الجزائر وَلّادة للعلماء على طول مسارها التاريخي وعمقها الحضاري عبر مختلف الأزمنة التاريخية عمل علماء الجزائر بكل الوسائل المتاحة للحفاظ على هوية الأمة الجزائرية في أذهان ونفوس الناشئة طيلة الوجود الفرنسي كان من بينهم علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد ابن باديس والشيخ محمد البشير الإبراهيمي، حيث أدركوا الخطر الفرنسي الموجه ضد الناشئة لذلك عملوا على فتح المدارس وتوعية الناشئة بضرورة الحفاظ على هويتهم المرتكزة على الدين الإسلامي، واللغة العربية، والأرض الجزائرية المستقلة تماما عن فرنسا .

وقد توصلنا من خلال بحثنا إلى النتائج التالية :

– أن هذه الأساليب الفرنسية التي لم يسلم منها حتى الأطفال تدل على مدى همجية المحتل الفرنسي الذي كان يرفع شعار الحضارة بينما كان يهاجم كل ما يرمز لهوية الشعب الجزائري وانتمائه الحضاري .

– ضرورة الاستفادة من تجربة منهج علماء جمعية العلماء لمسلمين الجزائريين وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد ابن باديس والشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي اعتمدوه في تهيئة وتكوين النشء، وذلك من خلال تكييف هذه التجربة التربوية والتعليمية مع الواقع المعاش حالياً وفق المتغيرات الحاصلة حاضراً .

– أن العبرة من دروس محطات التاريخ ليس التسلية بذكر أخبار من مضى من الأمم وانقضى وليست لمجرد الاعتزاز بصنيع الأجداد وإنما الهدف الرئيسي هو الاستفادة من هذه الدروس حاضراً، والعبرة من بحثنا هذا ضرورة الاهتمام الكبير بفئة الناشئة وتحضيرها وتهيئتها لتحمل

مسؤولية الحفاظ على هوية الأمة الجزائرية أمام كل التحديات الآنية والمستقبلية، وذلك من خلال التركيز على عنصر التعليم الذي يعتبر من أهم العوامل التي تشكل وتصقل شخصية هؤلاء الناشئة .

– ضرورة الاهتمام والعناية بالجيل الصاعد أو النشء من خلال وضع استراتيجية تهدف لتكوينه تكويناً سليماً قائماً على تعزيز روح الانتماء للوطن ولكل مقومات الأمة الجزائرية هذا من جهة، ومن جهة أخرى تكوينه بطريقة تجعله يفهم الحاضر وكل المستجدات التي تحوم حوله، مع امتلاكه لرؤية استشرافية لما سيكون عليه حاله وحال وطنه، وبذلك يكمل النشء المسيرة ويحافظ على العهد، لتظهر تلك الحلقة التي تربط الأجيال قوية متواصلة، بين نشء كُون كي يفجر الثورة ويحرر الوطن، وبين نشء كُلف بإعادة بناء الدولة الجزائرية، وبين جيل واجب عليه أن يحافظ على المكاسب التي حققها من سبقه ويعمل على تقوية وطنه والحفاظ عليها حاضراً ومستقبلاً .

– بقدر ما كانت قيمة النشء كبيرة في حياة الأمم والدول فإن الأهم من ذلك هو وجود قيم ومبادئ الهوية في نفوس هؤلاء الناشئة، لأنه إذا افتُقدت في نفوسهم فإننا نكون أمام جيل مستلب الذات متنكر لهويته وأصالته وبالتالي يسهل استغلاله لمصالح الآخرين على حساب مصلحة أمته، بل وربما يصبح هذا الجيل مفتاح شر وسبب لنكسة الأمة الجزائرية وتقهقرها .

– حرصاً على تكوين هذا الجيل الذي يُرجى خيره وفعاليته الحضارية لابد من فتح مخابر ومراكز بحثية تهتم بفئة الناشئة وتكوينها تكويناً سليماً تُراعى فيه مقومات وقيم الهوية التي تحفظ أصالته وعمقه الحضاري أمام التيارات الفكرية المعاصرة التي تستهدف ضرب الأجيال في قيمها وهويتها .

5. الهوامش

[1] – عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، ط 4، دار القلم، لبنان، ، 1981م، ص 170 .

[2] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ص 154

[3] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ص 284 .

[4] – أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج 5، ص- ص – 72- 75 .

[5] – أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج 3، ص 423.

[6] – محمد صالح بكوش، فرحات عباس من خلال كتاب"حرب الجزائر: جذور أزمة"، مجلة "المصادر"، مج 2، ع 4، الجزائر 2000م، ص=ص 137=149؛ ص ص 140 141 .

[7] – حياة رحايلي وعبد الله مقلاتي، الإسلام في فكر فرحات عباس بين الدفاع عن الهوية ومشروع الدولة، مجلة المعيار، مج 24، ع 49، الجزائر، 2020م، ص=ص 255= 271؛ص ص 257 260 .

[8] – سورة البقرة، الآية 120 .

[9] – عبد الجليل التميمي، التفكير الديني والتبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر في القرن التاسع عشر، المجلة التاريخية المغربية، ع 1، تونس، 1974م، ص 23 .

[10] – حدة طيطوش، الكاردينال لافيجري وأبعاد مهمته التبشيرية الجزائر 1867- 1880م، مجلة "مدارات تاريخية"، مج 1، ع 3، 2019م، ص=ص 520=539؛ ص ص527 529 .

[11] – عبد الحميد ابن باديس، آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف عمار الطالبي، مج 2، ج 1، ط 1، الشركة الجزائرية، الجزائر 1968م، ص 570 .

[12] – محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، ط 1، ج1، دار الغرب الإسلامي، 1997م، بيروت، ص 205 .

[13] – عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 538 .

[14] – أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج 3، ص 298 .

[15] – عبد الحميد ابن باديس، المصدر السابق، ص 571 .

6. قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أ – قائمة المصادر

• الإبراهيمي محمد البشير، **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، ط 1، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م .

•ابن باديس عبد الحميد، **آثار ابن باديس**، إعداد وتصنيف عمار الطالبي، مج 2، ج 1، ط 1، الشركة الجزائرية، الجزائر، 1968م .

• عبد الرحمان ابن خلدون، **المقدمة**، ط 4، دار القلم، لبنان، 1981م .

ب – قائمة المراجع

* الكتب

• سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 5، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م .

• سعد الله أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 3، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.

* المقالات

•بكوش محمد صالح ، **فرحات عباس من خلال كتاب"حرب الجزائر: جذور أزمة"**، المصادر، مج 2، ع الجزائر، 2000م؛ ص=ص 137=149 .

• طيطوش حدة، الكاردينال **لافيجري وأبعاد مهمته التبشيرية الجزائر 1867– 1880م**، مدارات تاريخية، مج 1، ع 3، الجزائر، 2019م ؛ ص=ص 520=539 .

• رحايلي حياة ومقلاتي عبد الله، **الإسلام في فكر فرحات عباس بين الدفاع عن الهوية ومشروع الدولة**، المعيار، مج 24، ع 49، الجزائر، 2020م؛ ص=ص 255= 271 .

•التميمي عبد الجليل، **التفكير الديني والتبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر في القرن التاسع عشر**، المجلة التاريخية المغربية، ع 1، تونس، 1974م .